

## بصمات قابوس

خير الله خير الله  
إعلامي لبناني

قلائل الزعماء في المنطقة العربية الذين تركوا بلداناً قابلة للحياة والتطور من جهة، وأن تكون على تماس مع كل ما هو حضاري في هذا العالم من جهة أخرى. أسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان دولة الإمارات العربية المتحدة وبنائها. وبنى الملك حسين الأردن الحديث. في المقابل لم يترك القادة الثوريون، من نوع جمال عبدالناصر أو معمر القذافي أو صدام حسين أو حافظ الأسد أو هوري بومدين، سوى الخراب. باستثناء مصر التي تحسّن وضعها في عهد عبدالفتاح السيسي، يصعب الرهان على أي مستقبل مزدهر للبلاد أو للعراق أو سوريا وحتى للجزائر، اللهم إلا إذا حصلت معجزة في عالم بات يصعب فيه الكلام عن معجزات.

الدولة تحديات كثيرة، لكنّها تبقى دولة بكل معنى الكلمة، وليس جهازاً أمنياً وشعارات لا تمت إلى الواقع بصلة. تدل على ذلك السلسلة التي تمت بها عملية انتقال العرش من قابوس إلى ابن عمه هيثم بن طارق الذي اختاره قابوس بنفسه ليكون خليفته. قد يكون ذلك عائداً إلى أن هيثم بن طارق رجل منفتح احتك بالعالم الخارجي باكراً، وكان بين الذين درسوا فيه في سبعينات القرن الماضي. كان طالبا داخلياً في لبنان في مدرسة "برمانا هاي سكول" المعروفة التي كان يقصدها طلاب ينتمون إلى النخبة العربية من المحيط إلى الخليج.

لعل الصفات الأهم التي تمتع بها السلطان قابوس هي الجرأة والحكمة والتسامح وبعد النظر في الوقت ذاته. لم تكن لديه عقدة الأجنبي. فعندما كانت عدن تحت الحكم البريطاني حتى العام 1967، كان يتوقف فيها في ينقل إلى لندن بحراً المتابعة الدراسة. كان يقول إنّ طموحه أن تصبح مسقط مثل عدن في يوم من الأيام. أين مسقط اليوم وأين عدن منها؟

في السنوات الخمسين، بين 1970 و2020، التي كان فيها قابوس سلطاناً لعُمان، شهد البلد ثورة حقيقية على كل صعيد. كانت ثورة بالمعنى الإيجابي للكلمة. هناك الآن بلد يمتلك كل مقومات الحياة، في حين لم يكن يوجد في عهد والد قابوس، السلطان سعيد بن تيمور، سوى مدرستين وطريقين معبدين في مسقط كلها. تجلت الحكمة التي يتحلّى بها قابوس باكراً عندما استطاع التعاطي مع التمرد في إقليم ظفار الذي يشكل ثلث مساحة السلطنة. لم يجد مشكلة في الاستعانة بخبراء بريطانيين أو جنوداً إيرانيين أرسلهم الشاه... أو بوحدة خاصة أردنية ساعدت في جعل الحكومة العُمانية تستعيد المبادرة في إقليم ظفار الذي مساحتها مئة ألف كيلومتر مربع.

كان واضحاً أنّ ثورة ظفار كانت جزءاً من الحرب الباردة التي تخللتها

محاولة من الاتحاد السوفياتي لإيجاد موطن قدم أكبر في شبه الجزيرة العربية، بما يتعدى حدود اليمن الجنوبي الذي صار دولة مستقلة منذ العام 1967. لم يلجأ السلطان قابوس إلى الانتقام بعد القضاء على التمرد ومحاصرته. على العكس من ذلك اعتمد سياسة تقوم على الاستيعاب. فاعتباراً من العام 1974 بدأ المتمردون يتراجعون، حتى أصبحوا شبه محاصرين في الجبال والمناطق النائية وراح دعم قبائل ظفار لهم يتقلص بشكل واضح خصوصاً بعدما تبنى التمرد المبادئ الماركسية. كان ردّ فعل السلطان قابوس أن اصدر عفواً عاماً عن المتمردين، فسلم المئات منهم أنفسهم من بينهم مطلق التمرد مسلم بن نفل. عندئذ، عفا عن جميع المعتقلين الذين صدرت بحقهم أحكام بالإعدام والسجن المؤبد أو لفترات طويلة. في موازاة العفو، أنشأ السلطان قوات عسكرية شبه نظامية تحت إشراف الحكومة سماها قوات الفرق الوطنية. ضم إلى هذه الفرق

المتطرفين ورجال قبائل إقليم ظفار. رفض مسلم بن نفل تسلم قيادة هذه القوات رغم إلحاح السلطان قابوس، كما رفض أي منصب وزاري وعاش بقية حياته في ظفار مواطناً عادياً حتى وفاته عام 2013. ترافق ذلك مع إطلاق السلطان ورشة عمرانية في إقليم ظفار، مستعينا بخبراء ومهندسين من بريطانيا وإيران وباكستان والأردن ولبنان. لم يتردد في جعل عدد من المتمردين وزراء في حكومته. من بين هؤلاء يوسف بن علوي وعبد العزيز الرواس.

سمح الوضع الداخلي لقابوس بأن ينقل جراته إلى السياسة الخارجية. لذلك كان لافتاً موقفه المتحفظ من القطيعة العربية مع مصر بعد زيارة أنور السادات للقدس في خريف العام 1977. ثم انعقاد القمة العربية في بغداد بضغط من البعثين السوري والعراقي في 1978. في تمثيل السلطنة في قمة بغداد سوى بوكيل وزارة الخارجية... لم تقطع السلطنة خيط معاوية مع مصر. اضطرت العراق إلى اللجوء إليها

من أجل التوسط مع أنور السادات كي تزوّده مصر بمعدات عسكرية كان في أشد الحاجة إليها في مرحلة ما بعد اندلاع الحرب مع إيران في العام 1980. لم يؤد ذلك إلى تغيير في العلاقات العُمانية - الإيرانية التي هي من الثوابت في السلطنة. بقيت السلطنة، التي تشارك إيران في الإشراف على مضيق هرمز تؤمن بأن العلاقة معها ليست قضية أشخاص، بل قضية مرتبطة بالجوار الإيراني والجغرافيا. ما يؤكد ذلك الدور الذي لعبته السلطنة في تسهيل التوصل إلى الاتفاق في شأن الملف النووي الإيراني الذي وقّع في صيف 2015.

يمكن الحديث طويلاً عن التميز العُمانى والقدرة على اعتماد سياسات مختلفة داخل مجلس التعاون لدول الخليج العربية، خصوصاً عندما يتعلق الأمر باليمن والعلاقة بالحوثيين، وحتى بإسرائيل. استقبل السلطان قابوس رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو في

## مصر وإثيوبيا في مواجهة الطرف الرابع

محمد أبو الفضل  
كاتب مصري

يمثل الاجتماع المتوقع يومي الاثنين والثلاثاء في واشنطن بين وزراء الخارجية والري في دول مصر وإثيوبيا والسودان، آخر فرصة حقيقية لحل أزمة سد النهضة. فقد أخفقت الدول الثلاث في التوصل إلى تقدم ملموس، بحضور ممثلين عن كل من الولايات المتحدة والبنك الدولي خلال الجولات الأربع التي عُقدت الشهرين الماضيين. الأمر الذي فتح الطريق بقوة لدخول الطرف الرابع، حسب وثيقة واشنطن في 6 نوفمبر الماضي.

أصبحت القاهرة وأديس أبابا والخرطوم في مواجهة مباشرة مع الطرف الرابع. وإذا كانت الثالثة ليست لديها ممانعات واضحة حيال السد ولا تزال أقرب إلى رؤية إثيوبيا، فإن الأزمة سوف تظل محصورة بين الطرفين الآخرين. وهو ما تؤكده المحادثات المتفرقة الناجمة عن اللقاءات التي عقدت في عواصم مختلفة.

يبود أن القاهرة على وشك تحقيق مسعاها في وجود طرف رابع تعتقد أنه كفيل بتسهيل عملية التفاوض المتعثرة. وسواء كان هذا الطرف الولايات المتحدة أو البنك الدولي، ففي الحالتين لن يتم تجاوز الأزمة ما لم يملك كل طرف النية الصادقة للتقدم، فأي وساطة لن تستطيع تحقيق اختراق، مهما بلغ حجمها، إذا لم تتوفر البيئة المناسبة أمامها.

أثبتت طبيعة الاجتماعات أن المواقف بين مصر وإثيوبيا متباينة، والحسابات التي تحكم عملية التفاوض تطغى عليها فجوات لافتة، والتقدير النهائي تشير إلى أن الطرف الرابع يواجه تحديات صعبة لتقريب الرؤى، حيث بدت الأزمة كأنها معادلة سياسية أكثر منها فنية. وكل الأزمة على طريقة المعادلات الصفرية التي تعتبر مكاسب طرف خسارة، لآخر، ما جعل التوافق عصياً.

من هنا تظهر واحدة من التعقيدات الرئيسية. فقد توارت النظرة الكلية الفنية أو تاهت وسط التفاصيل السياسية، بما يحول مهمة الطرف الرابع إلى مهمة في غاية الحساسية، لأن التوصل إلى حلول خلاقية عملية بعيدة المدى. فالإجراءات التي قدمت خلال الفترة الماضية لم تلق قبولا، أو لقيت موافقة مبدئية، ثم جرى وادها عقد دخولها مناهات جديدة، ما يضاعف من مآزق المواجهة الخارجية. تستطيع الوساطة إقناع الأطراف المتنازعة وتحقيق تقدم في الأزمة التي تندخل فيها، إذا توفرت مجموعة من المحددات أمامها، في مقدمتها أن تمتلك الجهة التي تشرف عليها الرغبة والإرادة والعزيمة والأدوات اللازمة لممارسة دورها والقبض على كل الخيوط مع وجود حوافز تدفعها إلى مواصلة دورها للحصول على مكاسب أو درء خسائر، حالية ومستقبلية.

وبافتراض أن أزمة سد النهضة بحاجة إلى دولة كبيرة وازنة، فإن الولايات المتحدة هي الجهة المرشحة بقوة، بحكم دعوتها إلى استضافة الاجتماعات وتحديدها جدولاً زمنياً للتفاوض، وتعاطم مصالحها في المنطقة، وعلاقاتها الجيدة بالدول الثلاث، ورغبتها في الإمساك بدفة الأمور في منطقة واحدة تتصارع عليها قوى إقليمية ودولية.

على ضوء النفق المظلم الذي دخلته المفاوضات بعد انتهاء الجولة الرابعة، هل تستطيع واشنطن تجاوز الاحتقانات بين القاهرة وأديس أبابا وحضهما على الحوار بعيداً عن

الانتهاكات المتبادلة؟ وما هي خطتها لتجاوز جبل الخلافات والعودة إلى المسار الصحيح؟ وهل في جعبتها ما يعينها على تقديم أفكار من خارج الصندوق؟

أسئلة حرجة تصعب الإجابة عنها قطعياً، جاءت بعد تمكن الإدارة الأميركية من جمع الأطراف الثلاثة في 6 نوفمبر الماضي، وسادت أجواء من التفاؤل بشأن رعاية الرئيس دونالد ترامب باعتبار هذا الدور كفيلاً بتخطي العقبات.

غير أن النتائج التي تمخضت عنها جولات التفاوض أوضحت عدم استعداد إثيوبيا لتغيير موقفها، وإصرارها على ثوابتها المعلنة المتعلقة بالمشروع، والسعي إلى استهلاك الوقت ليكون سد النهضة أمراً واقعاً، بمعنى أن الأزمة يمكن أن تقفز فوق الطرف الرابع.

ومع ذلك تتمسك القاهرة بوجوده كعنصر فاعل في العملية التفاوضية، وارتاحت إلى اقتراب إسناد المهمة إلى واشنطن. لكن النقطة التي وصلت إليها جولات التفاوض لا تدفع للتفاؤل، لأن أديس أبابا تعلم بحضور ممثلين للولايات المتحدة المرشحة لتكون الطرف الرابع، ولم تقدم ما يثبت الاستعداد لحل المشكلات الفنية، كأنها تعلم أنها في مامن أو لن تتعرض لضغوط، ورغم تجاوبها أظهرت قدراً من عدم الاكتراث بالوسيط الجديد في الأزمة.

تعلم أديس أبابا أن أزمة سد النهضة مرتبطة بالإدارة الأميركية، حيث بدت الأزمة كأنها معادلة سياسية أكثر منها فنية. وكل الأزمة على طريقة المعادلات الصفرية التي تعتبر مكاسب طرف خسارة، لآخر، ما جعل التوافق عصياً.

الأميركية الحالية المنغمسة في ملفات إقليمية أشد حيوية، وهي على وشك الدخول في موسم انتخابي قاس ومعدق، وقد يعاني الرئيس ترامب كثيراً من ضربات منافسيه، بالتالي يمثل اللعب على عنصر الوقت مدخلاً مهما لإثيوبيا للتعامل مع الموقف.

وتفاعلت أديس أبابا مع بوادر الوساطة الأميركية مراهنه على المستجدات. وقد تسعي إلى إرهاب واشنطن في تفاصيل فنية وسياسية متنوعة، كي لا تترك لها مجالاً للتقييم والمحاسبة. وتواصل استهلاك الوقت بصورة ناعمة دون أن تضطر إلى دفع ثمن خلاف تبدو فيه كمن تتحدى إرادة واشنطن، أو تظهر كدولة مارة وغير ملتزمة بالقوانين الدولية.

يضع الطابع القومي لمشروع سد النهضة على عاتق القيادة الإثيوبية مسؤوليات كبيرة تفرض عدم التفريط في هياكله الأساسية، فقد تحول إلى أحد العوامل الجامعة للشعوب التي تتكون منها الدولة. وكل امتزاز في أركانها يؤدي إلى تداعيات وخيمة بعد هدوء الانتقادات والتظاهرات الموجهة إلى الحكومة الإثيوبية.

هذه إحدى أهم الرسائل التي تحرص أديس أبابا على توصيلها إلى الولايات المتحدة التي رأتها حليفاً استراتيجياً مهماً في منطقة القرن الأفريقي، وتعمل على تقديمه كمنهج للانصهار الوطني والحدادة. ومن الصعوبة أن تمارس ضغوطاً قضائية إلى انفجار الأوضاع. ونجحت أديس أبابا في ربط تقديمها بإنجاز السد ومشروع تنموي يقود البلاد إلى نقلة حضارية.

يظل الخطاب المصري محكوماً بالحقائق في عدم الإضرار، والنمساك بالاتفاقيات السابقة، وجوهر وروح القوانين الدولية المتعلقة بالأنهار. وهو خطاب عاطفي وملتزم نسبياً وجذاب أحياناً، لكنه غير كافٍ للتعامل مع مشروع في حجم سد النهضة الذي شارف على الانتهاء. ربما تكون القاهرة تقدمت في قضية الطرف الرابع، لكن حضوره ليس هو المعضلة، ولن يكون الحل

## العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن  
1977 أسسها

أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة  
رئيس التحرير المسؤول

د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام

محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير

مختار الدبابي

كرم نعمة

حذام خريف

منى المحروقي

مدير النشر

علي قاسم

المدير الفني

سعيدة اليعقوبي

تصدر عن

Al-Arab Publishing House  
المكتب الرئيسي (لندن)  
The Quadrant177 - 179 Hammersmith Road  
London, W6 8BS, UK  
Tel: (+44) 20 7602 3999  
Fax: (+44) 20 7602 8778للإعلان  
Advertising Department  
Tel: +44 20 8742 9262  
ads@alarab.co.ukwww.alarab.co.uk  
editor@alarab.co.uk